أحمد طوسون



مجرد بيت قديم

قصص

مجرد بيت قديم

قصص قصيرة

أحمد طوسون

مجرد بيت قديم
قصص
أحمد محمد طوسون
لوحة الغلاف

الفنان / محمد الطلاوي
الطبعة الأولى
فبراير 1999
رقم الإيداع 3341/ 1999
الترقيم الدولي
I.S.B.N 977 291- 145 0

الإهداء:

إلى أمي وأبي وأخوتي وشيماء
حبا لكم

أحمد

1

فصل 1/2

حضرة الناظرة دخلت فصلنا ، كل مرة تأخذ واحدا منا وتخرج ، ثم تعود بمفردها لتأخذ آخر .
أبله بشات مدرسة الحساب تركت الكتاب والطباشير وقالت :
- قيام
حضرة الناظرة لم تكن معها ابتسامتها الطيبة حين قالت :
- جلوس
بدت شاحبة وهزيلة على غير عادتها ، تتكلم مع أبلة بشات وتتساقط قطع المرارة المكتنزة بعينيها قطرات صغيرة على الأرض .
البنت ميرفت تنقل الدرس من السبورة إلي كراستها وحسام خطف سندوتش نجوى ..
حضرة الناظرة نادت على أسمي فوقفت ، وتوقفت ميرفت عن نقل الدرس ، وترك حسام سندوتش نجوى .
حضرة الناظرة قالت للأولاد في الفصل :

ـ قولوا لزميلكم مع السلامة .
ميرفت لم تقل ـ مع باقي الفصل ـ مع السلامة ، أبلة بشات ضمتني إليها ونظرت إلي حضرة الناظرة ومسحت دمعة سحت من عينيها وقالت :
ـ كان أشطر ولد في الفصل !
* * *

كل صباح انتظرها عند آخر شارعنا ، تتشابك أصابعنا الصغيرة ونطوح بأيادينا عاليا حتى تلامس السماء .
في الميدان نلتقي وباقي الصحاب ننتشر ونتسابق كجرذان فزعة حتى باب المدرسة .
منذ فترة يحرص الآباء والأمهات على اصطحابنا إلى باب المدرسة ، ننفلت من أياديهم الخشنة ونقفز إلى الساحة ، أظل أبحث عنها بين الرؤوس السوداء الصغيرة حتى نلتقي في طابور الصباح وتقف بجواري .
على درجات السلم تفلت مني وتسبقني إلي احتلال مكانها بمقعدنا المشترك ولا نفترق إلا عند أول شارعنا آخر النهار .
اليوم عندما أخذتني حضرة الناظرة من الحصة الثانية ، سألتني ميرفت :
ـ هترجع نروح سوا ؟
لم أعرف بما أجيبها ، ابتلعت صمتي وعبرت نظراتها ونظراتهم وسرت حتى نهاية الفصل وأنا أفكر في زملائي الذين خرجوا ولم يعودوا ثانية إلى الفصل .
عند الباب شعرت بانقباض وغصة في قلبي لم أعرف سببها ولمحت كائنات صغيرة ترتعب في وجوههم .
* * *

عندما نزلنا سلم المبنـي القديم إلى فنـاء المدرسـة كـان عم حسن يدق جرس الحصة الثانية .

بعـد برهـة سـمعنا انفجـارا مـدويا وأحسسـنا بارتجـاج الأرض تحتنا .

حضـرة النـاظرة لقفتنـي إلـى حضـنها ..لـم يمـر وقـت و تلقفنــي أبــى مــن حضــرة النــاظرة إلــى حضــنه ويديــه الخـاليتين مـن سندوتشـات الجبن البيضـاء ومربـى التـين وزمزمية الماء .

سلم أبى على حضرة الناظرة وصحبني معه .

عنـد بـاب المدرسـة الحديـدي لـم أجـد أثـرا لفاترينـة عـم شعبان ولم يكن هناك أحد من باعة الحلوى .

كان أبي يربت على ظهري عندما تلاقت عينانا وقلت لـه :

- بابا باقي حصة على الفسحة ..؟!!

لكنــه لــم ينظــر إلــيّ ونحــن نتــرك شــارع المدرســة إلــي الميدان ولم يتكلم.

* * *

بلـون الرمـاد تكـون نهـارات ديسـمبر وبطعـم الشـجن تتزين غماماته الكثيفة ، كنت أشعر بـالحمى تسـري إلـي جسـدي وسـخونة جلـدي تلسـعني كلمـا لامسـني الهـواء الندي وثمة شيء بداخلي يقارب على الانفجار .

الشـوارع خاليـة وكئيبـة .. حـوائط كثيـرة متهدمـة تسـد الطريق أمامنـا ..عربـات بـاللون الكـاكي تـربض مـن بعيـد فأشعر بالاختناق .

لـم أكـن أسـتطيع الـتخلص مـن البلـوفر الأزرق الـذي صنعته أمي أو حقيبة كتبي المعلقة فوق ظهري ، وأشعر بأيـاد خفيـة تلتـف حـول عنقـي وتحـاول خنقـي وأنـا لا أسـتطيع أن ألقـي بحقيبـة الكتـب إلـي الأرض حتـى لا يغضب أبى ولا أن أرتدي القميص الرمادي الذي اشتراه فـي عيـد مـيلادي وأتـرك البلـوفر الأزرق منعـا لمخالفـة أوامر أمي بخصوص نزلات البرد والسعال الذي ينتـابني .

* * *

عنـد البيـت كانـت تتشـح بالسـواد وحولـهـا تلتـف نسـاء جيراننـا ، حقائبنـا الكبيـرة التـي سـكنت سـطوح دولابنـا خرجت عنـد عتبـة بابنـا ووقفت منتفخـة بصـحبة حقائـب جيراننا .

أناس كثيرون اختطفوني إلي أحضانهم ، ونساء كثيرات كن يقبلنني ويبكين .

منذ موت جدي لم أر أمي بهذه الحالة ولم أر كلَّ هؤلاء في شارعنا والفزع يتصيد وجوههم التعبة .

كانوا يتحدثون عن النوافذ الزرقـاء والغارات الغاشمة والتهجيـر والمقاومـة الشـعبية والنـوارس التـي لـم تعد تحلق في سماء القنال .

لم أسأل أمي عن سبب بكائها ولم أسأل أحدا من جيراننا .. لكنني كنت أبكي مثلهم دون أن أعرف السبب .

* * *

- إمتى الحرب تخلص ؟؟!

كانت المرأة تسأل جارتها في العربة المكتظة بنا وأمي تبتلع دموعها في صمت موحش وتلتصق بجسدي الصغير وتحوط عنقي يداها الدافئتان ..لا أعرف لِم أحسست أنها تبحث عندي عن شيء افتقدته .

كانت الأجساد تنحشر وتتدافع في العربة وأبى يلوح لنا وعلى وجهه دموع ثقيلة وعربات كثيرة حولنا تتكدس بالحقائب الكبيرة ووجوه كثيرة أعرفها بدت وكأنها غريبة عني .

العربة تمرق بجوار بيوتنا المهجورة وصدى أنين بعيد يخطف قلبي .

أمي تعبث في شعري وأحس بدقات قلبها تقصف جوارحي وعيناها تلمعان رعبا من حركة شفتي .

- هو بابا مش هاييجي معانا ؟

- لأ...

- ليه يا ماما ؟ ..

أحنا رايحيين فين ؟؟

- مش عارفة ..

ساعتها كان صوتها يئن بشجن طائر ذبيح وسقطت دموعها الباردة على وجهي .

- ومش هروح المدرسة ؟؟

- هتروح ..

لا أعرف لِم لمْ أصدق أمي وغمرني أحساس بفقد ميرفت والمدرسة وبفقد أشياء كثيرة أحبها .

تدافعت الأسئلة إلى رأسي تسألني عن سبب تركنا لبيتنا ومدرستي وكل الذين أحبهم . لكنني حين نظرت إلي أمي ارتعدت من العتمة المكومة في عينيها فالتصقت بجسدها

الشاحب وعبرت نظراتها الفزعة إلي الرمال المتدفقة حولنا أتابع ركضها المستمر خلفنا .
* * *

بباب حديدي كبير وسور عال وحديقة كبيرة وصالة فارعة تتسع لكل زملائي في الفصل وحجرات كثيرة وأخري خاصة بي - بها سرير نظيف ومكتب ودولاب يمتلأ بالملابس الجديدة واللعب الجميلة وراديو صغير- كان بيتنا .
ولا أعرف سببا لوجودنا هنا في هذه الحجرة الضيقة مع كل هؤلاء..
أحب أن أكون مع أبى في بيتنا وأكره هذه الحجرة الباردة ، وهؤلاء الناس وأغطيتهم الخشنة وخبزهم الجاف ومعلباتهم المرة .
* * *

منذ جئنا إلي هنا لم نترك هذا المكان القذر ..
ولم أر على وجه أمي ابتسامتها الطيبة ..
بين الحين والحين كنا نسمع نساء جيراننا يتحدثن عن القادمين من السويس ، وأخبار القتال وأفواج التهجير التي تتوالى .
اسأل أمي عن أبى الذي لم يعد حتى الآن ، لكنها تتركني ولا تجيب ! .
اليوم قبلتني أمي وقالت :
- ألبسْ علشان نروح المدرسة .

بعيون مدهشة كنت أراقبها وهي تفك أزرار بيجامتي ، واستسلمت لمشاعري وهى تنسج فرحتها على خيوطي .

عبثا كنت أحاول إبعاد صورة أبى وهو يحمل سندوتشات الجبن والمربى وينتظرني عند باب المدرسة .

ميرفت .. وعم حسن .. وحضرة الناظرة وأبله بشات ، عبثا كنت أحاول أبعادهم عن طريقي حتى أرتدي ملابسي .

بلعت فرحتي وتأهبت ليوم مبهج وأقسمت هذه المرة أن أسبق ميرفت إلي احتلال مقعدنا حتى تفاجأ بي .

انتهيت من ارتداء ملابسي وسألت أمي إن كان أبي سيحضر ويأخذنا إلى بيتنا أم سينتظرنا هناك بسندوتشات الجبن والمربى ؟

أنَّتْ أمي ولم تنظر لي وهي تقول :

- لا ..

أنت هتروح المدرسة الجديدة .

* * *

كان الراديو يهتز فوق المنضدة وأمي تنصت بلهفة لصوت المذيع بعد أن وضعت البطاريات الجديدة التي اشترتها من بقالة عم لطفي بأول الشارع ورفض عم لطفي أن يأخذ ثمنها وتدير المؤشر ليصبح أكثر وضوحا .

لا أعرف لِم تذكرت عمي عاصم ..

حين دق بابنا ذات يوم أحدهم ومعه بعض المتعلقات التي تخص عمى عاصم وما قاله عن استشهاده في العمليات .
ارتدت أمي السواد وبكى أبى كطفل صغير ينهنه وابتلعت جدتي حسرتها وتحدثت عن أحلامه التي لم يحقق شيئا منها وعروسه التي لم تهنأ به .
أبي وما قاله عن وجوده الآن بصحبة الملائكة والصحابة .
وحين تمنيت أن أكون معه ومع الملائكة ضربت أمي صدرها بكفها وشدتني إلى حضنها وقالت :
- ألف بعد الشر يا حبيبي ..
ربنا يحرقهم الكفرة .
أغلقت أمي الراديو ومسحت دمعة علقت على خدها وضمتني إليها .
كنت أحاول الإفلات من قبضة ذراعيها حين قلت :
- ماما هو بابا هيرجع امتى ؟
- ....
- ماما أنا مش عاوز أروح المدرسة الجديدة .
ضغطت أمي وضمتني إلى حنانها وارتكنت بي إلى حضن الجدار وظلت تحملق في صورة أبي المعلقة هناك طيلة النهار .
*** * ***

بعد يومين عادت أمي وقالت :
- إن كنت تحب بابا تعال نروح المدرسة .
- بابا وحشني قوي يا ماما ..
هو هيرجع امتى ؟!

- هيرجع يا حبيبي ....
- ....
- بأذن الله هيرجع .

وأنا كنت أحب أبي ولا أريده أن يغضب لعدم ذهابي إلى المدرسة ، وكنت أريد أن أقول له إنه وحشني جدا وإنني لن أكلمه عندما يأتي لأنه تركني ولم يأخذني معه ..

وفكرت أنه من المؤكد بالمدرسة الجديدة توجد حضرة الناظرة وأبله بشات وميرفت أيضا ..

فعدت ووافقت .

* * *

عند باب المدرسة استقبلنا آخر لا يشبه العم حسن ، وحين أمسك بكفي جذبته منه وسألته :

- أنت اسمك عم حسن ؟

ابتسم وقال :

- لا ..

أنا اسمي عم منصور .

- وأنا أحمد

فناء المدرسة كبير وواسع وتغطيه نجيل صفراء قصيرة وبه الكثير من الأولاد والبنات .

وعندما سألت أمي عم منصور عن مكتب حضرة الناظرة ضحك وقال :

- مكتب حضرة الناظر ..

الأستاذ سرحان .

لا أعرف لِم انتابني شعور غامض بالخوف والأسى ، فلم أكن أتخيل أن هناك مدرسة بدون حضرة الناظرة .

* * *

عندما دخلت فصل 1/2 المدرسـة التـي كانـت هنـاك قالـت لي :

- لا يا شاطر أنت في 2/2 .

أقسـمت لهـا أننـي فـي فصـل 2/ا لكنهـا لـم تصـدقني ولـم تلتفت لي وتركتنا وهي تقول لعم منصور بصرامة وحزم :

- خذه إلى 2 / 2 .

أخذتني المدرسة التي كانت تشرح الدرس في فصل 2 / 2 وأجلستني في أخر مقعد .. قلت لها :

- لا يا أبله ..

- أنا بقعد جنب ميرفت في أول تختة .

ميرفت وقفت وقالت :

- لا يا أبله ..

أنا بقعد هنا وحدي .

فـي أخـر مقعـد جلسـت ، أمـامي تتـراص رؤوس سـوداء صغيرة .

لا أعرف لـم تـذكرت أمـي وهـي تتشـح بالسـواد عنـد بـاب بيتنا القديم بجوار حقائبنا الكبيرة ، والشوارع المهجورة ، والغمــام الكثيــف ، وحضــرة النــاظرة وأبلــه بشــات ، وميرفت التي كانت تسبقني إلى مقعدنا المشترك ، وأبـي وهـو يلـوح لنـا بحـرارة وأسـى ، فغمرنـي شـجن هائـل وبكيت حتى دق جرس الفسحة .

نـادرا مـا تمطر ليلـة العيد

واقف فـي شـرفتك ، تطل علـي الشـارع المسكون بشـبح يسعل سنوات الكهولـة ، وعجـوز تنـبش بـين الركـام عن شـباب ولـي ، وامـرأة تحمـل صـاجات الكعـك ، وطفـلان يحـاولان التغلـب علـى العتمـة والصقيع بضـوء الفـانوس الملون ، وضجيج أجهزة التلفاز المنبعث من البيوت .

واقف وتلك الانقباضة التي تشبه مقصلة تقطع نشيج قلبك .
حبات مطر بارد تتساقط من نافذة الشرفة علي الرصيف ورذاذ يدغدغ قلبك ، ترسم شوارع أخرى .
تهرب من عينيك الصورة ، وتسكنك ثرثرة زوجك مع أختها عبر الهاتف ، وارتعاشة ريح باردة ترج جسدك .
تغلق النافذة .
لكن جسدك على ارتعاشه لا يهدأ ، وجسد زوجك أمامك مشحون وممتليء بارتعاشات كثيرة ، ارتعاشات تفتقد ذلك البريق القديم .
تهرب منه إلي شماعة الحائط وأزرار قميصك التي ترتجف ...وتدعو الله ألا يكون العيد غدا ..
- أنت هتخرج ؟!
قالتها وهى تحتفظ بالسماعة على أذنها .
- افتكرت موعدا هاما
- متتأخرش ، بكره العيد
- لسه محدش عارف
تغلق خلفك الباب ، وتفتح الشوارع لخطواتك ..
كل هذا الضجيج والأنوار والزينات وتفتقد شيئا ما ، شيئا أثيرا يحرك الحياة داخلك ، شيئا يدفعك سنوات إلى الوراء ...
ورق الزينة ، فوانيس الشمع ، الصحبة ومباريات الفجر ، مدفع الإفطار ... ترى إلي أي بقعة مظلمة توارت الأيام البعيدة ، ولماذا تحكم المقصلة حد سكينها على قلبك ؟

على الرغم من ازدحام المحلات والشوارع ، الوجوه تفتقد بهجتها ، تفتقد ملامح الدفء ، الصقيع يحفر وجوها جهمة .
كنت دائما تشترى لها فانوسا جديدا ، تستقبله كطفلة فرحة بأول فانوس ..
أمام أحد المحلات تقف تتأمل عرائس العرض ، لها الوجوه نفسها التي حفرها الصقيع ، هذا الفستان ربما يعيد البهجة إلي جسدها ، ربما يعيد تشكيل الارتعاشات .
القميص الأزرق دائما ما تقع عيناك عليه ...
نادية تحب العرائس ....
أحيانا ما تكون هي عروسا جميلة .
الأكياس ثقلت بين يديك ، تبتسم لتذكر مقولة أحدهم إن الشراء يضفي متعة ما ، رغبة ما في الامتلاك ...
على مقهى صغير تجلس ، زينة رمضان تغطي سقف الشارع الضيق ، لكنها لا تمنع زخات المطر من السقوط على الأرصفة كقطع زجاج صغيرة وحادة .
ـ بكره صيام ؟؟
سأل أحدهم .
ـ لسه مقالوش ...
تتذكر أطفال الشارع ..
مصروفكم الذي تحتفظون به لشراء فانوس كبير تضعونه على ناصية شارعكم ، أحلامكم أن يمتلك كل واحد منكم فانوسا كبيرا فوق سقف بيته ، فوانيسكم الصغيرة تصحبكم إلي صلاة التراويح وصلاة الفجر .
فتحت أحد الأكياس وتفحصت الفانوس وتساءلت إن كان سيعجب زوجك .

لم تعد تحس لسعة البرد ، الشارع بدا أكثر زحاما بصاجات الكعك والأكياس المزدحمة بملابس العيد .

قبل عودتك إلى البيت تذكرت أنك لم تشتر شيئا للسحور .

زبادي ، جبن رومي ، بسطرمة .

كان والدك يرسلك إلى بائعة الفول بخمسة قروش ، الآن تستطيع أن تجد أشياء كثيرة تصلح للسحور ...

حينما فتحت الباب كانت زوجك مازالت تثرثر عبر الهاتف ، تفحصت عيناها الأكياس جيدا وقالت :

ـ ماما بتسلم عليك وبتقولك كل سنة وأنت طيب .

فتحت الأكياس ، ظلت لفترة تحملق في المرآة وتضع الفستان أمام جسدها ، وضعت الجبن والبسطرمة والزبادي على المنضدة .

ـ فول .. أنت عارف أني مبحبوش .

أخرجت الفانوس ووضعته على السرير .

ـ ما قلتلك اشتري فانوس لحازم أخويا ..

جايبه النهارده ، وبكره العيد !

كنت تفك أزرار قميصك وهى تمسك بقميصك الأزرق الجديد ، وتقول :

ـ دا نفس لون القميص اللي عليك ..

كنت هات لونه فاتح شويه .

بينما كنت تفتح نافذة شرفتك ، كانت زوجك تضع الفستان أمام جسدها وتنظر إلى نفسها في المرآة .

ـ شكله هيطلع ضيق جدا !

وأنت تقف في شرفتك ، تطل على الشارع المسكون بأطفال كثيرين يحملون فوانيس صغيرة ، وتتأرجح فوق

شجرة من وهم ، والسماء تسقط رذاذا على صاجات الكعك ، وكلاب تنبح .
نوافذ البيوت مغلقة ومعتمة ، وزوجك تقترب منك بقميصها الأحمر ...
القميص عينه الذي اعتادت أن ترتديه كلما جاءت الأعياد .
اقتربت من تفاصيل جسدك ، صعدت يداها إلى الأماكن التي اعتادت ملامستها وهى تهمس لك :
ـ كل سنة وأنت طيب .
كنت تغلق النافذة والمطر يزداد غزارة وعيناك تتابعان العروس والفانوس ملقيين على الأرض بجوار قميصك الأزرق ، ويد زوجك تلتف حول عنقك وتشدك إلى السرير.
تطفئ نور الحجرة ، والارتعاشات الرتيبة عينها تغزو جسدك .
لكنك كنت تسمع الأطفال وهم يهرولون بفوانيسهم تحت المطر ، وتعاودك تلك الانقباضة .

مفتاح الجنة

على إفريز النافذة لمبة جاز بفتيل محروق وكتاب أصفر ورقه كأوراق الخريف وحشرة ميتة بين خيوط عنكبوت عجوز.
دولاب صغير بضلفة واحدة وقبقاب من الخشب أسود اللون- لم يعد له صوت- تحت السرير النحاس.
قشور الجير غطت صورة الجد المعلقة على الحائط، وسحلية صفراء تمطت من شق الجدار وأطلت على الولد الجالس فوق السرير.
سكون له طعم الأيام القديمة ورائحة بكارة!
الولد كان تحت السلم الخشب بمدخل البيت، أمامه تقف البنت، وفوقهما تهدل حمامتان.

نظر الولد إلى زوج الحمام وإلى عيني البنت العسليتين وقال لها: أحبك.
خرجت السحلية من شق الجدار، وقفت وبصت على الولد وعلى نقش أرجلها بأرضية الحجرة.
نظرت البنت إلى زوج الحمام.. دق قلبها بعنف وقالت:
- والله العظيم بحبك!
لم يرَّ الولد السحلية واقفة تبص عليه، وقع نظره على حبة كهرمان من مسبحة قديمة، حبة واحدة وباق ثمان وتسعون حبة كهرمان.
بحث بنظره على الأرضية الترابية وعلى الخيط المدور فوق الصورة وبجوار الراديو الكبير المركون فوق الدولاب.
تحسس مكان العصا الخيزران على جسده وعاد إلى الراديو الكبير.. أكبر من كل الراديوهات التي رآها وأكبر من التلفزيون ال14 بوصة الملون، لكن لا صوت له كباقي الراديوهات.
رأى الولد ذكر الحمام يقبل الحمامة، ضم البنت إلى صدره، أول مرة يضم بنتا إلى صدره.. داعب خصلات شعرها وقبل شفتيها.
بصت السحلية عليهما وقالت:
- ولد طيب يشبه جده كثيرا
أحست البنت برجفة في جسدها.
رأى الولد السحلية تبص عليهما، فرح وقال لنفسه: (عندما حاولت قتل السحلية أمي قالت: حرام يا ابني، السحلية شايله في بطنها مفتاح الجنة!).
أحست البنت برجفة في جسدها، ضمت الولد إليها وبكت، ارتعشت على صوت أبيه وهو يصرخ فيهما:
- يا أولاد الكلب

نظر الولد إلى أية الكرسي المعلقة إلى جوار صورة أبيه الكبيرة بمدخل الصالة وسمع أباه يشخط في أمه ويقول:
- عمره ما هيشوف الجنة بعينيه.
خافت السحلية، عادت بسرعة إلى الشق.. خافت البنت وجرت عائدة إلى بيتها.. بكى الولد وجرى إلى حجرة جده التي لم يعد يدخلها أحد غيره.
بصت السحلية عليه من شق الحائط، بص الولد عليها وتحسس مكان العصا الخيزران وقال لنفسه:
- معقول يكون معاها مفتاح الجنة؟!!
خافت السحلية.. لم تفكر في الاختباء بجوف الشق، خرجت مسرعة وجرت إلى ناحية النافذة، خائفة من كلام الولد وأحلام عينيه الصغيرتين، اصطدمت في اللمبة الجاز فسقطت من فوق إفريز النافذة- على الأرض- قطع زجاج صغيرة يغطيها السواد.

حافظة نقودي

لم يعد الأمر خافيا على أحد في البيت أوفي العمل أو بين الجيران والأصحاب وصار موضوعا للحديث والتندر الذي لا ينضب .

رغم ذلك لم يخلُّ الأمر من استنكارات وتنديدات ومؤازرات لفظية لم تنفع في سد طلبات زوجتي اللحوحة التي لا تنتهي أو سداد إيجار الشقة وفواتير الكهرباء والمياه والتليفون ورسم الزبالة (المتكدسة دوما بعتبة البيت) ..

كما أنها لم تنفعني كثيرا في إقامة علاقات طبيعية وودودة مع صاحب محل الفول والفلافل الذي يقطن معي في العمارة التي أسكنها أو مع بائعي الخضار بسوق المنطقة .

وبالتأكيد لم أكن بحاجة لزيارة القصاب الذي لم أعتد بالأساس زيارته كثيرا ..

في المرات السابقة التي جعلتني الشخص الأشهر بين موظفي المصلحة لم تفلح الإجراءات والأحتياطات التي أتبعتها في تفادي المصير عينه !
هذه المرة أقترح أحدهم أن استأجر حارسا يتكفل بحمايتها .
أول الأمر كانت الفكرة مضحكة واستحلبت تعليقات وضحكات الزملاء ..
استئجار أحدهم يعني بدون تفكير التضحية براتب شهر أخر .
لكن مع اقتراب الموعد باتت الفكرة الصعبة هي الحل الوحيد والأخير للتخلص من الغموض الذي يكتنف اختفاء حافظتي مع أول كل شهر بمجرد انتفاخها بالورقات الخضراء حتى لو تطلب الأمر التضحية براتب شهر أخر ، ولن يكلفني الأمر أكثر من مراجعة واحد أو أكثر من مكاتب الأمن التي تطاردني إعلاناتها في كل مكان.
الطريق إلى الخزينة شاق وطويل ، أستغرق الوقت كله .
أمشي وراء الحارس خطوة بخطوة حتى وصلت في النهاية إليها..
الموظف الأنيق مد يده من بين حديد نافذته وناولني ورقة وقلماً وأرشدني إلى المكان المناسب للتوقيع .. ثم عد الورقات الخضراء ودسها بين يدي وأطبق كفي عليها .
الحافظة الجديدة انتفخت عن أخرها .
الحارس الذي استأجرته ليوم كامل بدا مسيطرا على الموقف ولم يعطني الفرصة لتفحص الحافظة بعد

امتلائها ـ كانت شروطه أن تكون له الكلمة الأولى والأخيرة ، الكلمة الفاصلة والحاسمة .
لم تكن فكرة سيئة حين أصر على أن نهبط طوابق المبنى المتعددة عن طريق السلم ورفض الهبوط عن طريق المصعد رغم آلام الفقرات القطنية التي تعاودني بين الحين والأخر.
لكنه بدا متسلطا حين منعني من مغازلة زميلتي الصاعدة أوحين منعني من مجرد النظر إلى أي امرأة أخرى تهبط أو تصعد أمامنا .
ولم يخف عن أحد متابعته الشرهة للصاعدات والهابطات برغم احتفاظه هو بالحافظة .
عندما استوقفني صاحب الاقتراح عند باب المجمع وسألني عن فكرته وهل أخذت بها منعني بغلظة من الرد عليه ! .
في الحقيقة كنت افتقد الرغبة في محادثة أحد ، فقد كانت الحافظة تسيطر على تفكيري وتكبلني لهفة الحصول عليها والفوز بها عن أي شيء آخر .
حين حاولت الوقوف في طابور الميكروباص أمام المجمع نهرني بشدة ، عنفني وسأل في تجهم لا داع له عن عنوان السكن .
ـ أبو قتادة
لم أجد تفسيرا واضحا لنظرة السخرية التي امتلأت بها عيناه ؟؟ ..
في الحقيقة هو في النهاية مجرد عامل استأجرته ليكون في خدمتي وحراسة أوراقي الخضراء وكنت أريد أن أفهمه إنه من المؤكد ليس من ساكني الفيلات والشاليهات ولا يتوجب عليه أن يسخر من حالي ..

لكنني كنت أراجع نفسي وأكبح رغبتها في التمرد وأزحزح ملامح الغضب عن وجهي وأردد في نفسي :
- إنه مجرد يوم سيمر طال أم قصر ..
استوقف تاكسي وكنت قد شردت برهة ووجدته يفزع في بصورة بدت مهينة وانطلق التاكسي بعد أن احتلته امرأة بدينة ، عاود سخريته وامتعاضه قائلا:
- طبعا شيء جديد عليك !.
(يا ابن الكلب)
كنت أقولها في نفسي وأنا أعتذر بإيماءة وكلمة لم تكتمل عن شرودي .
هذه المرة حين استوقف التاكسي حشرني بجوار السائق وجلس في المؤخرة .
لم أكن أعرف سببا لمداومة السائق سباب كل من يقابله وتأففه المستمر ، نظرة التحدي التي طلت من عينيه حين ضبطني أفحص بنظراتي عداد السيارة عندما توقف في إشارة المرور .
الحارس اللعين لكزني تحت إبطي حين لمحني أتابع عُري المرأة التي تقود السيارة الواقفة إلى جوارنا .
هذه المرة التمست له عذرا وتساءلت بخجل عن استثارتي الصبيانية التي لا تناسب الموقف الذي أعيشه ؟!
السائق المستفز أشار إلى مفترق طرق وقال إنه لا يستطيع أن يدخل أكثر من هنا ..
ثمة صراع نشب بين الحارس والسائق حقق لي شيئا من التشفي وهبطنا بعده مترجلين المسافة الباقية .

قفزت إلى رأسي فكرة أن أعود إلي البيت حاملا كيسا أو أكثر من فاكهة الشتاء صارحته برغبتي ، تململ وتأفف وقال بصيغة آمره :

ـ اشترِ ما تريده بعد انتهاء مهمتي .

عند اقترابنا من محل العصائر كان العطش قد استبد بي ، لكنني يأست من محاولاتي معه ، فاجئني واتجه ناحية المحل وحادثني دون اعتناء وقال :

ـ تشرب شيئا ؟؟

ـ يا ريت

وكان تصرفا غريبا عليه منذ عرفته في بواكير الصباح الفائت والأغرب إنه ناولني كوبا من التمر الهندي الذي أحبه وشرب هو كوكتيل الفاكهة .

أخيرا لاح البيت أمامنا .

استمر الحارس اللعين في معاودة التأفف ـ الذي لازمه منذ البداية ـ وهو يتفحص البيت وقال باشمئزاز :

ـ هذا هو العنوان ...؟!!

أومأت له برأسي فسبقني إلى داخل البيت ولم يعطني الفرصة لأحذره من طفح المجارى بمدخل البيت ، وكنت أسمع لعناته بدون اهتمام .. بصعوبة تجشأت بضع كلمات وقلت :

ـ الدور الرابع ..

السلم كان ضيقا ومظلما وشعرت بشيء من الحرج للصورة التي بدا عليها بيتنا ، لكنني على كل حال لا استقبل الغرباء كثيرا ..

بالكاد استطعت أن أسبقه إلى باب شقتي وإن سبقني إلى طرقه .

حين فتحت زوجتي الباب لم أعطه فرصة للدخول ، حشرت جسدي عند الباب وأمرت زوجتي أن تبدل جلبابها ألبيتي بآخر لا يظهر تفاصيل جسدها .

قبل أن يختار كرسيا يجلس عليه تفحص المكان جيدا ، بدا ودودا وهو يصافح زوجتي وولدنا الصغير وأخرج ورقة فئة العشرة جنيهات وأعطاها للصغير .

تركنا طفلي إلى باب الشقة دون مصافحتي أو الألتفات لنداءات أمه المتلاحقة ..

اقتربت زوجتي وهمست لي :

ـ هل نجحت هذه المرة ؟؟

بثقة مبالغ فيها وقبل أن أرد عليها خاطبها :

ـ اطمئني يا مدام ..

الأمور تسير على أحسن ما يرام

كان ثمة تغير طرأ على نظرة زوجتي لي .

انتظرت أن يعطيني الحافظة ، لكنه بدا وكأنه ينتظر شيئا ما ، استمر الصمت مسيطرا لفترة ، نظرت إلى زوجتي وقلت لها :

ـ اعملي لنا شايا

ـ انتوا أكلتوا ..

كان لسؤال زوجتي وقع الصدمة عليّ ، دائما ما تحاول توريطي ..

أسرع في الإجابة كأنه يحتفظ بالإجابة على طرف لسانه :

ـ لا

كان النهار قد انقضي ، و تعدت الساعة السادسة .

جرجرت زوجتي خطواتها وتخطت عتبة شقتنا والجوع عرف طريقة إلى معدتي وإن أبديت عدم الرضاء على توريطنا ..

وكنت أفكر فيما ستفعله زوجتي وأنا أعرف أنها لا تملك ما تشتري به طعاما .

مع مرور الوقت نشب شيء من الود بينه وبين محتويات الشقة وفوجئت به يشير ناحية المطبخ ...

ـ الحمام دا ؟

رددت بعفوية بغيضة وباستسلام تام وقلت :

ـ لا ..الذي بجواره

كنت أتفصد غيظا ، لكن الأمر الواقع فرض هيمنته عليّ وفوجئت به يناديني من الداخل :

ـ مفيش عندك بيجامه ألبسها

ـ لا

الملعون عجبه الحال ، هل يعتقد إنه بيت أبيه ؟!

مر الوقت بطيئا حتى خرج من الحمام يلف رأسه بمنشفتي الخاصة .

دون أن ينظر لي أو يعيرني اهتماما عبث بأزرار التلفاز وتمدد بجسده المفتول العضلات على الأريكة المواجهة له وأشعل سيجارة من علبة تبغي .

ـ سجاير مصري ..!!

-...................

ـ يا أخي التلفزيون ممل جدا

- ....

ـ مفيش عندكوا فيديو

ـ لأ

بعد أن عادت زوجتي تحمل معها دجاجة مشوية فاحت رائحتها بالشقة ، لحقت بها عند المطبخ ، لكزتها وسألتها بعنف :

ـ منين ؟؟

ـ أتصرفت ..

ـ كيف ؟؟

ـ ليس الآن ...

عندنا ضيوف

ولم يكن بأية حال ضيفا نستقبله ، إنه مجرد أجير استأجرته لمهمة وانتهت وكان عليه أن يذهب ولا افهم سببا لعدم إعطائها لي حتى الآن ؟

بعد أن انتهينا من تناول العشاء ، ونجح وحده في الإجهاز على نصف الدجاجة وترك النصف الآخر لي ولزوجتي ولولدنا الصغير (الذي عاد بدوره إلى الشقة بعد أن أجهز على العشرة جنيهات وأصبح بينه وبين الحارس مودة لم أعتدها من طفلي الصغير مع الغرباء)

.

أثناء إعداد زوجتي للشاي نفد صبري ووثب تساؤلي في وجهه :

ـ المهمة انتهت والحمد لله؟؟

قال ببرود وثقة :

ـ فعلا ..

كان يوما شاقا وطويلا لكن الحمد لله نجحنا .

لكنه لم يخرج الحافظة وبدا الأمر يدعو للشك والريبة .

ـ طيب آخذ المحفظة بقى ؟؟

ـ بالتأكيد ولكن نشرب الشاي أولا

ـ وما الداعي والشا ... ؟

لم أكمل جملتي حتى جاءت زوجتي ومعها الشاي وجلست معنا وشرعت تتبادل معه الحديث عن زوجته وأولاده وعمل المرأة والمدارس الخاصة والوظيفة والعمل الحر .. و..و.. وأشياء كثيرة أخرى لا أتذكرها بعد أن شردت مع كوب الشاي الذي يأبى أن ينتهي .
استطاع الغضب أن ينتصر عليّ فصرخت فيه :
- يا حضرة المهمة انتهت .
المحفظة لو سمحت .
ببرودة أعصاب وهدوء لم أعتده فيه ودون أن يفارق كوب الشاي يده لفظ بجملة قصيرة لم أسمعها ولا أعرف بالضبط ما الدافع وراء تحرك كل هذه الدماء إلى رأسي والقوة إلى جسدي ومباغتته وهو يجلس مسترخيا على كرسيه والقفز فوقه .
من أين واتتني القدرة على حمل جثمانه الضخم والهبوط به على درجات سلمنا التي اتسخت بطفح المجاري ودم أسود قميء وخرجنا إلى الشارع وأيادي كثيرة تحاول رفعي من فوقه وعيون أكثر ترقبنا من بعيد.
مشدوها كنت أرى الدماء تنز من جسده ورائحة عرق غزير تنفذ إلى داخلي فتلهب حماسي ، لم يستطع الناس منعي عنه ..
بصعوبة استطاع المسعف تخليصه من بين يدي وحمله إلى السيارة واستطاع الشرطي الوصول إليّ فأعطيته يدي مستسلما .
لم يكن وجهه طيبا أو مريحا ، ولم تكن وجوه الراكبين تظهر تعاطفا ما ناحيتي ، انحشرت وسطهم في العربة

الجيب وهى تمرق بنا إلى القسم لكنني كنت أتنفس بهدوء وتراودني رغبة في إشعال سيجارة .

مجرد بيت قديم

مـدق ترابـي يمتلـئ بـالحفر والمستنقعات ، وقطيـع مـن الكـلاب الضـالة والقطـط الهزيلـة التـي تعـاني مـن أنيميـا حــادة ..وأوز طليـق سـعيد بتحليقـه فـوق ميـاه الترعــة وبالأســماك الصــغيرة المختبئــة فــي الشــقوق وأولاد يرتـدون نفس الجلبـاب الكسـتور المقلـم ، يشمرونـه إلـي وسـطهم فتبـدو سيقانهم كـأعواد الـذرة النـاشـفة ،أغلـبهم حـافي القـدمين ، يلعبـون (السـبع طوبـات) فـي حـواري القرية.

كنت مثلهم أملك جلبابا مقلما بدون ياقة أو فتحـة بالجنـب ..ولا أذكر أن أمي أعطته لواحد من أبناء جيراننا، لكنني حين بحثت عنه لأعطيـه لأبنـي الصغير لـم أجده ، وحين سألت أمي عنـه ، قالت:

ـ يا ابني ، دا شيء من زمن وراح

وأقسـمت زوجتـي ألا تبقـي يومـا بالبيـت إن فكـرت فـي شراء جلبـاب مقلـم لأبننـا الصغير .. وأصرت أن يرتـدي تي شيرت بحـروف أجنبيـة كبيـرة وكوتشـي يضغط قدمـه إلي حبة سمسم صغيرة .

***

كانت دائما تريد العودة إلـي بيتهـا ، لكننـي لا أعـرف لمـا كانـت تصـر جـدتي هـذه المـرة علـى العودة إليـه بعـد أن تركته منذ أكثر من عشر سنوات وعاشت معنا وأصبحت عـاجزة عـن خدمـة نفسـها .. وكانـت أجـازتي قـد انتهـت وحــان موعـد سـفري ، وحــين دخلــت عليهــا حجرتهــا الصغيرة لأودعها ..إنكفئت على يدي وقبلتها ..

- وحياتي عندك يا ابني ..وديني البلد
ولم يكن هناك وقت ، وأحسست بدموعها تنسال على خدي فانسحبت من بين أحضانها واختبأت من عيون أمي وزوجتي وطفلي الصغير ..
- السنة الجاية يا ستي
هنقضي الأجازة كلها هناك
في الطريق إلي المطار كانت العاصمة ترتع في الزحام ، ووجوه الناس في الشوارع تحاصرني بوجه جدتي وأنينها
- وحياتي عندك يا ابني .. وديني البلد .
***
عندما عدت إلي شقتي الصغيرة وتفحصت وجه أمي وزوجتي وطفلي الصغير ورأيت الصمت الرطب يغزو شفاههم ، وجلباب جدتي الأسود مصلوبا على شماعة الحائط ، وسريرها الحزين ، عرفت أنها لم تستطع الإنتظار وسألت نفسي إذا ما كانت عرفت موعد رحيلها ..؟؟ ورأيت الموت كائنا بشعا بلا قلب يحلق فوق رؤوسنا ، فارتميت في حجر أمي وبكيت لأول مرة أمام صغيري المرعوب .
سنوات طويلة لم أطأ بقدمي القرية البعيدة ، الطريق الطويل يبعث في النفس أزمنة منسية والغبار المحيط بي يدفن أحاسيس الطفولة المتدفقة ويطمس ملامح وجهي الذي نسيته .
كنت أري دوارنا يكتظ بكبار بلدتنا ووسطهم يجلس جدي مهيبا بجلبابه الصوف الرمادي وشاله الأبيض والصواني الكبيرة تدخل إليهم محملة بفطائر الزبدة والعسل المصفي وفناجين البن والشاي ورائحة عبق

قديم .. وأري جدتي عند باب دوارنا تنتظرني بفرحتها وكوب الحليب الدافيء والذرة المشوية وتقسم أن تذبح أكبر أوزة في الدوار ترحيبا بي .
تدحرجت سيارتي في الحفر والمستنقعات التي ملئت الطريق ، هبطت مترجلا المسافة الباقية وكنت حريصا على محاولة تذكر الطريق إلي بيت جدتي بعد أن مسحته سنوات الأغتراب .. وحين لمحت النسوة يغسلن أواني الطعام على جسر الترعة ويملئن الجرار من طرمبة المياه ورأيت قطعيا من البهائم يستحمون مع الأولاد العريانين في الترعة .. أحسست برغبة شديدة في التخلص من رابطة العنق وقميصي وبنطالي الضيق والقفز مثلهم إلي مياه الترعة .

***

حين إنتبه الأولاد إلي وجودي توقفوا عن لعب (السبع طوبات) والتفوا حولي .. نظروا إلي بعضهم البعض وكأنهم يتفقون علي شيء ما بينهم وفي نفس واحد يرددون الدكتور أهو ..أهو
الدكتور
العرق كان ينزل على وجهي بغزارة ولا أعرف لما أحسست بغربة شديدة لم أكن أحس بها من قبل في زيارتي للقرية ، لكنني تذكرت حينما كنت أرتدي نفس جلبابهم المقلم ويهبط قريتنا غريب في ملابس البندر ونلتف حوله مهللين ..
ساعتها لم نكن نتصور أحدا في ملابس البندر إلا أن يكون طبيب الوحدة الصحية أو زميلا جاء لزيارته .. لفحت وجهي إبتسامة باردة وواصلت السير وهم يواصلون هتافاتهم .

***

بينما أسير في الطريق إلي بيوت القرية لاحظت الكثيرين يرتدون البنطلون والقميص وتعجبت من التفاف الأولاد حولي وحدي .. لكنني فوجئت بواحد من أهل القرية يمتطي ركوبته ويتجه نحوي ويهش الأولاد من حولي :

ـ أهلا بريحة الحبايب .

هبط من فوق ركوبته واحتضنني بشدة ، كان في نفس عمر والدي حينما توفي وله نفس الوجه الطيب والذقن التي تلسعك شعيراتها الكثيفة عند إحتضانه وكنت أشم رائحة أبي تتسرب إلي أوردتي بما يشبه الهمس ، فض الرجل الأولاد من حولي وقال :

ـ لا مؤاخذة يا أستاذ .. عيال قليلة الأدب

عاوز تروح فين ؟؟

ـ بيت الشيخ عبد الوهاب

ـ مش قلتلك ريحة الحبايب

وأصر أن أركب خلفه فوق ركوبته ، وعرفت أنه لا يعرفني كما لا أعرفه ، وأحسست وأنا أركب خلفه بترهل جسدي ، فظللت أهتز وأتمايل كأبقار (الفرزيان) المهجنة وأتشبث به بعنف .

***

البيوت أصبحت بالطوب الأحمر وعلي بساطتها يغرس وسطها بيت أو أكثر أشبه ببيوت البندر الكبيرة ، وتغطي رؤوسها الأطباق وأجهزة استقبال التلفاز ..

قال الرجل الذي أرافقه أن البيوت ظلت على حالتها إلى أن حدث الزلزال ، البيوت لم تحتمل كأنها كانت تنتظر أي شيء لتسقط ، فلم نجد بدا من إعادة بناءها ..

ـ الحكومـة كتـر خيرهـا صـرفت لكـل بيـت 500جنيـه وإتصرفنا في الباقي .. اللي بـاع حتـة أرض ، واللـي بـاع جاموسة

....

ـ الأرض نفسها ماعدتش تجيب همها ..والنـاس كل واحد شافله شغله ..اللي فتح كشك سجاير .. واللي سافر البندر ..يشتغل هناك ..واهي ماشية

****

حين دخلنا إلي الدرب الوسطاني أطل وجه جدتي :

(..سلم على الحاجة عيشة ، ياما سقيتك من بزها .. كانت أحن من أمك نفسها أول ما تحلب جاموستها تبعت لك كوباية اللبن .. ، سلم على الشيخ أحمد ..متخفش منه ، يمكن يدعيلك دعوة تصلح حالك ..أوعى تصدق أنـه عبـيط ، حـرام يـابنى دا مبـروك وعمـره مـا أذي حـد ..والنبـي أدعيلـه يـا شـيخ أحمـد دا ابـن الغـالي وابـن الصالحة .. دا بيت خالك أبو سيد توفيق .. دا ابن خالتك دراهم ، سلم عليه طول عمرك باعد نفسك كلهم عزوتك يابني ، مستغرب ليه)

وكنت ألتفت عليهم فلا أجد واحد منهم ، ووجدت بيت الحاجـة عيشـة قد أصبح حطامـا .. ورأيت الوجوه تطل من خلف الأبواب تتفحصني ولا أكاد أرى وجها يعرفنـي ، وسمعت أنين طفل صغير وصراخه وأمه تهدده وتشير إلي

ـ إذا مسكتش هخلي الأفندي يديلك حقنة

****

عند بيت جدتي تركني ورحل ، زيق الباب بشدة حينمت دفعته وتوقفت على صوت عجوز أطلت من خلف بابها المفتوح وقالت :

ـ تعيش وتفتكر يا أستاذ

كان البيت الوحيد الذي مازال بالطوب اللبني وعندما فتحت الباب شممت رائحة الموت تسكن فوق جدرانه وأزمنه قديمة ترقد مستسلمة لخيوط العناكب وغبار السنين وتعجبت للحوائط التي تهدمت والسقف الذي تهاوى وتذكرت أيام كان بيتنا أكبر دوار في القرية والنخلة التي كانت تتوسط حوشه والتي كنا نتسابق في إلتقاط رطبها التي تتساقط علينا والتي لم يبق منها سوى جذع محترق حوله قواليح محروقة وأرائك خشبية سقطت أقدامها وبقايا (زير) قديم جف ماءه وكوب من الصفيح غطاه السواد .. وزهرة صبار وحيدة أمام قبر جدتي.

ـ سامحيني يا جدتي

كنت أراها تنظر بوجهها الملائكي إلي الحوائط المتهدمة والسقف المتهاوي والنخلة التي احترقت وأسمع أنينها الشجي

***

كانت الشمس تنسحب من الحوش دون أن أحس بها ، وحط الليل على البيت القديم ، جمعت أشلائي وتحسست طريقي إلي الباب ، زيق باب بيتنا ولم يسمعه أحد ولم يلحظ أحد خروجي ، وكان صوت التلفاز ينبعث من البيوت محملا بمسلسل المساء ..

جرجرت أقدامي إلي الحواري الضيقة الخالية من الأولاد ، وصورة ابني وهو يلبس الجلباب المقلم ويستحم في مياه الترعة تلح على رأسي.

2

أغنية الذي مات

ورقة صغيرة غير مستوية.. خط مائل مرتبك ..
أعطى الورقة لخادم المسجد بعد أن أيقظه.. صوته أول مرة لم يخرج.. أخطأ اسمه الثالث في المرة الثانية.. والثالثة قرأه صحيحًا.. وأغلق الميكروفون ..
الشبورة كثيفة.. والسائرون كتل ضبابية عمياء ..أنصتوا جيدًا.. في الحقيقة كان كل واحد منهم يبحث عن سؤال داهمه فجأة.. حين سمعوا الاسم.. انصرف أغلبهم.. حاول البعض أن يسترجع من الذاكرة شكلاً له.. قليلون من عرفوه.. آخرون كانوا يعرفونه لكنهم لم يسمعوا ..
وجهه أبيض بلون صفحة جريدة خالية من الحروف.. ترتكز مؤخرة رأسه على حجر امرأة تبدو عجوزًا.. تأبى أن تتركه ..تمسح بشفتيها صقيع وجهه وتتحسس ملامحه وكأنها تعرفه لأول مرة.. تكومه على صدرها المرتجف وتصرخ بهستيريا من فقد عمرًا كاملاً.. تحاول الأخريات منعها دون فائدة ..
كجبل جليد يتهاوى يقبع الرجل العجوز بالردهة الكبيرة الموصلة إلى حجرته.. فجأة شاب كل جزء فيه.. وعجز عن الفعل.. ظل يحملق في اللاشيء.. أو ربما في أشياء بعيدة لا نراها.. واضحًا أن ثمة حوارًا يديره مع شيء موجود.. وإن لم نره ..
عجائز كثيرات يبكين في جوف الدار.. عليه أو على غيره فُقد منذ زمن بعيد.. غالبًا ما يأتين بذكرياتهن معهن.. تربت كل واحدة على الأخرى ويتجرعن نفس مرارة الألم ..
الشبورة كثيفة.. الصباح يبدو وكأنه بعيد والشوارع على حالتها لا تتغير ..
نشيج المرآة العجوز لا ينتهي.. الأخريات خف نشيجهن ..
الصباح الحزين قطعته الشابة الجميلة قطعًا صغيرة وفرقته

على الجميع.. اخترقت السواد وتكومت فوق جسده النحيل..
تكومت العجوز فوقها وشاركتها نشيجًا جديدًا ..
قادم من بعيد بخطوات ثقيلة كالعمر ..وجهه لم يحمل ملامحًا.. تزفر أنفاسه لهيبًا وتنزف دموعه إلى الداخل ..
لم يستطع الدخول إلى البيت.. عاهدته العجوز ألا يفارقه مهما حدث.. وهاهو قد فعلها وتركه وحده ..
حدثه كثيرًا عن إحساسه بالموت القريب.. ظن أنها حالة ضيق وستمر ويعاود حالته الطبيعية ..
في الأيام الأخيرة تغيرت أحواله كثيرًا.. وكان يبتعد كثيرًا عن الناس.. لم يكن يرغب في رؤية أحد ممن يعرفهم.. حتى هو كان يحصل عليه بصعوبة.. في المرات القليلة الأخيرة كان يتحدث عن أشياء غريبة تحدث له.. لم يعد يتحمل ..
لم يصدقه ..
لم يصدقه الكثيرون ..
العجائز حاولن الخروج خلف نعشه ..
أخيرًا ذابت الشبورة وظهرت الجدران المبتلة بالدمع..
مازالت تخلف موعدها معك ..
في السماء القريبة حلقت طيور غريبة.. لم يصدر منها صوت ما.. وربما لم يرها أحدهم ..
الرجال القساة منعوهن من الخروج خلفه.. عويلهن وصراخهن أفزع بهائمهم التي لم تخرج اليوم ..
المسجد لم يكن بعيدًا ..
أحس بهن وهن يلوحن له ..
البلدة سمعت الصوت الغريب.. ورأت الطيور الغريبة..
فزعوا.. هرولوا.. رددوا بنشيج لا ينقطع" لا إله إلا الله.. محمد رسول الله .."
كثيرون صلوا عليه.. لم يتوقع أن يصلي عليه أحد ..

يخرجون.. يتدافعون إلى عتبة المسجد ..
يسبقونه ..
دائمًا ما يسبقونه ..
يحمل النعش أربعة لا يعرفهم.. الرجل العجوز يحمله اثنان يعرفهم ..
أربعة.. وأربعة.. وأربعة ..
كثيرون حملوا نعشك.. لكنك لم تعرفهم ولا يعرفونك ..
لأول مرة تطل عليك الشمس وتغيب سريعًا ..
يقتربون من البوابة الكئيبة.. كان هناك آخر سبقك.. اختلط من جاء معك مع من جاء معهم فلم تعد تعرف أيهم جاء يقصدك ..
كثيرًا ما سبقك آخر ..
الصوت الغريب عاد مرة أخرى ..
يدخلون.. يلتفون حول شاهدك.. يهبط معه اثنان.. يخرج واحد.. الأخير يوسوس لك" :رب أعوذ بك من همزات الشياطين.. وأعوذ بك رب أن يحضرون "..
يتركوك وحدك ..
أسبلوا عليك التراب.. صاحبك لم يستطع.. سقط فحمله كثيرون.. وخرجوا ..
دائمًا ما انصرفوا عنك إليه ..
يخرجون ..
العجوز أصر أنٍ يبقى بجوارك وحده.. ظل قرابة الساعة صامتًا.. مسكونًا بأحرف اليتيم.. انتظره آخر بعيدًا.. كلما حاول الاقتراب ..أشار له يبتعد ..
أخيرًا بعد أن ظننته ميتًا ملس بيديه على شاهدك.. كم كانت يديه دافئتين.. كنت دائم التمني أن تعبث أنامله بشعر رأسك.. أن يحتويك في أحضانه ..

نزف بصعوبة :
"-لم أكن أجيد التعبير.. ومازلت ..
لكنني لم أحب إنسانًا مثلك ..
ولم أكره إنسانًا مثلك لأنك تركتني وحيدًا "..
غامت مرة أخرى.. الآخر تضجر من وقفته التي طالت ..
لم يكن هو الآخر يجيد التعبير ..
في هذه المرة أصر الآخر على اصطحابه وخرجا ..

*** * ***

هي في مدينة أخرى بعيدة.. تبعدها عنك جبال أشبه بالزمن.. ومسافات تسرق العمر.. وجه بلا روح.. مصابيح بيضاء.. رتوش وألوان.. بنايات كبيرة تدهس المارين.. وشوارع تغضب في وجهك وناس غريبون عنك ..
أيها الغريب لم جئت؟ ..!
الشبورة كثيفة.. والسائرون كتل ضبابية عمياء.. وصوت الميكروفون البعيد لم يصل لواحد منهم.. وهي نائمة .. ترقص حول وجهها الجميل ملائكة صغار بنقاء شعاعات صبح.. وصفاء نهر فردوسي ..
يقترب الصغير منها حاملاً حقيبته المدرسية.. تهرب الملائكة إلى السقف.. يقبلها الصغير.. يغترف من ضيائها ويذهب وحده.. وتعود الملائكة إليها ..
لم توقظها خطوات أبيها وهو يجوب الشقة الصغيرة لترتيب حاجيات يوم عمل طويل.. لو توقظها الأم البدينة بعد أن ودعت الأب باب شقتها وعادت إليها.. سحبت الوسادة

الدافئة من بين أحضانها واحتلت مكانها ..
تثاءبت وابتسمت ..
ابتسمت ملائكة بعدد ساكني الأرض والسماء.. وأنشدن أنشودة الصباح الجميل.. احتضنت جسد أمها وداعبتها :
" -تغافليني وتسحبين وسادتي وتنامين في أحضاني "..
ضحكت الأم ..
هربت آخر نسمة نعاس من عينها.. تفتحت زهرتان ..جميلة كربة الجمال ..
كان يعرف أن لها جمالاً خاصًا لا يشاركها أحد فيه.. يرى ويحس.. لكنه لا يوصف.. وفي وصفه إنقاص له.. كيف يصف المعقول اللامعقول؟.. كيف تصف الظلمة النور؟ ..
ارتدت الأم ثيابها وخرجت إلى السوق ..
الشبورة خفت قليلاً ..زقزقات العصافير تناديها.. كنت دائمًا تسألها كيف تعرف لغتهم؟.. تضحك وتسألك :
" -وكيف تعرف لغتي؟ .."
نفضت عن جسدها غبار الكسل.. فتحت ستائر الصبح على وجهها ..وتطلعت إليه في مرآة دولابها.. لمحتك ترنو إليها من المرآة.. تعرف أنك تسكن كل جزء فيها.. جيوش النمل تجتاح جسدها وتدغدغه.. كان يعجبه زيها الأسود.. مر شهر أو أكثر ولم يتصل بها ..
الزقزقات.. رنين الهاتف ..
)ترنك(.. لهاث نبضاتها يزداد ..نسمة باردة تعانق جسدها فترتعش.. لن ترفع السماعة.. ستتركه يرن.. كثيرًا ما أسرعت إليه.. لكنه لا ينطق ..
انظر كم هي جميلة؟.. كيف ابتسمت لها نافذة الشرفة؟.. كيف تراجعت الشبورة الكثيفة وطلت على استحياء الشمس..؟
الرنين ..

تمد كفها إلى قفصه الصغير.. تفتح بوابته الصغيرة.. يقف على كتفها.. تداعب ريشه الأصفر.. تقربه من شفتيها.. دائمًا ما كانت تشبهه بك.. لكنه أبدًا لم يهرب.. وأنت لم تحب يومًا إلا قفا الصغيرة.. دائمًا تبدأ به قبل الأخريات ..
انتهى الرنين ..
هل تتساءل عن وحدته؟.. لماذا تركته عصفورته وطارت بعيدًا عندما فتحت لها الباب؟.. ولماذا لم يطر خلفها؟.. كنت تحس به يشاركك حبها.. كيف تغار من عصفور وحيد تراه ينتظر عصفورته أن تعود؟ ..
" -يومًا ما ستعود "..
" -يصعب على من جرب حياة الأشجار أن يرض بحياة الأقفاص "..
تمد كفها الصغيرة.. وتدخله القفص ..
ثمة أنين بعيد يشق الجدران.. تشير له من بعيد وهي تداعب الأخريات.. كن يزقزقن فرحًا بها ..
كم هي بريئة.. وكم أنت مدان ..
تكره الشوارع الخالية وتخشى صفير الرياح ومطر الشتاء ..
وأنت على عادتك تحب دغدغة الشتاء.. والنوم في العراء وبرق السماء والرعد ..
أين أنت الآن أيها الغريب؟ ..
الطيور الغريبة تحلق في سمائها.. تسمع صوتها وتراها ..
استرجعت صورته.. صورته البعيدة :
" -يومًا ما سترين طائرًا أزرق غريبًا يحلق في السماء.. ستعرفين حينها أن محاولات الرجوع باتت مستحيلة.. وأن شيئًا جميلاً قد مات "..
ارتجفت.. فزعت ملائكتها الصغار.. خنقت سحابات كثيفة وجه الشمس.. صرخت ..دوت صرختها في الفضاء دون أن

يسمع بها أحد ..

***

وحدك هنا.. خرجوا وتركوك.. لم ينتظرك أحد ..
حتى العجوز تركك لجدارين يطبقان على جسدك الميت ..
الليل يزحف نحوك كأفعى.. عيون الموت تتفحصك -دائمًا ما تفحصتك عيونهم -كان لا بد له أن يأتي.. لم تخافه الآن؟..
كم أحببته من قبل.. الآن ترتجف منه كقطة مذعورة.. دائمًا ما تفشل في السيطرة على أعضائك.. حاول وهي ميتة.. لا تستسلم لذلك اللحد الضيق.. اكسر أبواب زنزانتك واهرب..
لا تخشى عيونهم.. مجرد أموات.. لا تنتظر منهم شيئًا.. لن ينجدك أي واحد منهم.. سيبقون على حالتهم.. يراقبونك ولا يتقدمون ..
اخرج منها ..
تخلص من قيود خوفك..حطم مزاليج حبسك.. واكسر كل الأبواب التي أغلقت خلفك.. ستكون العتمة ساترًا لك.. لقد أمنوا أنك انتهيت.. لم يعرفك أحد.. تقدم ولا تتراجع ..
اخرج منها.. لا تخف ..
نفس الحياة التي عشتها من قبل.. لم تتغير كثيرًا.. لن تعيقك الجدران.. تقدم.. لن يستوقفك الحارس على البوابة.. هاهو يغلق بوابات عينيه فزعًا منك ..
انظر ..
نفس الشوارع خالية كما تحب.. البيوت فوهات براكين خامدة.. منذ ألف عام خمدت نيرانها ولن تشتعل.. الليل ماضٍ

في طريقه لن يوقفه أحد ..
الشتاء يفترش الأرض.. ويفترس وليمته ..
الكلاب تنبح خلفك ..تعوي.. دعهم ينبحون.. لن يستطيعوا نهش لحمك ..
انتظر ..
ألا تريد أن تمر عليهم؟ ..
بضع خطوات قليلة تبعدها عنك صاحبك المخلص.. أنت يا من تبعدك عنه سنوات البلاهة التي عشتها.. هل مازلت على بلاهتك الآن وقد تعرى أمامك التاريخ؟.. بضع خطوات وتراه عائدًا لتوه.. يحمل معه أخبار النهار المنقضي.. كان يجيد الرشق من الخلف والابتسامة في الوجه ..
اقترب أكثر ..
يدير قرص الهاتف.. استمع ..
" -آلو "..
- "........................"
" -صحيح ما حدث "..
- "........................"
" -غير معقول.. كيف ومتى؟.. ولماذا هو بالذات؟ ..أهكذا بكل بساطة؟.. لقد كان ومضة النور في حياتنا.. كيف أطفأت هكذا؟.. كلنا مسئولون.. كلنا مدانون.. لا أستطيع تحمل الكارثة "..
- "........................"
" -أن نفعل شيئًا لأجله.. أي شيء.. إنه يستحق منا الكثير "..
أترى؟.. أتسمع كم يبدو كلامه جميلاً؟ ..
انظر إليه ..
هاهو يخلع ثيابه.. يفتح ثلاجته.. يتفحص صورته التي تعلو

حائطه.. يأكل بشراهة كعادته ..يتمدد أمام التلفاز.. يضحك على نكتة سخيفة ويقهقه ..
أي ثمن بخس قبضه؟ ..
أم تراه لم يقبض ثمنًا.. وتلك هي الكارثة؟ ..
انطلق من أمامه كوهم ..
لن يغلق لك عينيه.. ستخونه ذاكرته.. سيتذكر أنك صاحبه الأوحد وينسى كل ألاعيبه التي مارسها معك ..
لم تسرع هكذا؟.. لم تعد تحتمل وجهه الخالي من الأقنعة؟ ..
تمهل ..
الشوارع واسعة وطويلة.. خالية وكئيبة.. تشاركك نفس الألم والحزن ..
تمهل ..لم تحب اليوم العودة مبكرًا إلى البيت؟ ..
انتظر ..
لن تفلح دقاتك المتواصلة على الباب.. لن يجدي أنين الجرس المزعج.. تخط الحاجز واعبر الباب ..
ادخل ..
لم تتراجع منقبضًا؟.. رائحة الموت؟.. تلك الرائحة تسكن أنفك الشامخة.. كم مرة تمنيتها؟ ..
تذكر ..
المحقق يقترب منك.. يبدو متوترًا بعض الشيء.. ترى هل له خبرة لازمة لمثل هذه المواقف؟ ..
خانك توفيقك.. كان للصفعة وقع الصدمة ..
لا ترتعد.. لماذا تبدو ضعيفًا هكذا؟.. اثبت ..
هاهو يعود إلى توتره.. يلف حولك كبندول الساعة.. تك.. تك.. تك.. الدقات المتوالية تعصف برأسك.. يقترب منك.. يسألك ..تذكر جيدًا ..
لا تعرف ..!

تجلد أكثر.. لكمته قوية.. وجهه أسود حالك.. ملامحه لا تعجبك.. وملامحك أيضًا لا تعجبه ..
أنت متأكد.. تذكر أي شيء عنه ..
حاول ..لا تنهر سريعًا ..
" -يا ابن "...........................
كنت تتمنى أن تعرف السبب.. كنت تسير وحيدًا.. الشوارع خالية وكئيبة.. تفكر في البنت البعيدة ..وفي العصفورة التي هجرت قفصها.. وقلبك الذي أفسده التدخين ولم يعد يتحمل ..

وحدك الآن ..
تحصارك جدران أربعة.. تعصر جسدك.. لا يقاوم الألم..
اعترف بهزيمتك.. لا أحد يراك الآن.. ابكي.. اصرخ.. لا تبق صامتًا هكذا ..
ستموت صمتًا ..
الزقزقات ..
كيف تجرؤ على الغناء أيها الحبيس؟ ..
حاول ولو لمرة واحدة أن تعيش واقعك.. لا تشرد بعيدًا ..
الطيور الغريبة تغزو سماء البلدة.. وأنت بين جدرانك الأربعة لا تستطيع منعها عن النعيق ..

*** * ***

إنهم يجتمعون الآن ..
تذكرت؟ ..
أيها الملعون.. ماذا يضحكك؟.. ألا تعبأ بجلال الموقف.. كادوا

يهوون بك في الحفرة العميقة ..
كم كنت ساذجًا.. غرروا بك ..
الحفرة واسعة وعميقة.. كلهم يجيدون لعبة القفز ..
الفتاة الصغيرة تقف وتراقبك ..
جلبابك الضيق سيمنعك.. يتراهنون عليك ..
" -يستطيع "..
" -لا يستطيع "..
" -حاول "..
" -ستصبح بطلاً "..
" -ستحبك الفتاة ذات الضفيرة الواحدة "..
اجتمع المشاهدون.. تراص المتسابقون.. كل واحد أخذ مكانه.. صفارة البداية.. انطلاق.. هرول.. لم تجد واحدًا منهم معك.. لا تنتظر هكذا.. عميقة جدًا ..واسعة كالمحيط.. حلق.. سيصدمك السحاب.. تسقط.. يضحكون وأنت تستغيث..
يضحكون ..يهربون وأنت تستغيث.. البنت ذات الضفيرة الواحدة ترمقك وتضحك.. يمد لك العجوز يده ..جلبابك لوثه الطين ..
المرأة الطيبة في انتظارك عند الباب.. تفرغ قلقها ولهفتها في أحضانك.. تبكي وتروي ظمأها من وجهك ..
" -اطمئني.. لم يحدث شيء "..
دائمًا ما تسببت في عذابها ..
انظر إليه.. إنه يترقبك بنظرته القاسية.. اختبئ في نظرة أمك.. انفض عن جسدك الطين.. لا ترتعد.. لا تسقط.. الأرض صلبة من تحتك.. لا تخفهم ..
اصرخ بكل ما أوتيت من قوة.. ستمنع الزنزانة صوتك..
تحاصرك الجدران الأربعة ..المرحاض الكريه.. وجه المحقق يطاردك.. صوته يخرق أذنك ..

" -يا ابن "............
لماذا تدمن الهرب؟.. انتظر ..
دائمًا ما تهرب إليها.. وحدكما عند الجدول الصغير.. تمد يدها.. تداعب وجه طائر جميل.. تقربه من شفتيها.. تقبله وتتركه يحلق كملاك ..
المساء جميل كوجهها.. للمرة الأولى تمسك يديها.. تتعرف على دفء ملامحها.. يسكنك إحساس بالحياة.. تحس بجناحيك يحلقان.. وجهها يرمي خجل.. تهرب منك..
تستدير.. تمسك بكلتا يديها ..
الزقزقات ..
عينيها بحر صافٍ.. وسماءٍ مشرقة.. عيناك قصيدة وترتيل يبتهل به في معبدها.. كيف يجرؤ وجهه الكريه على أن يطل من عينيها؟.. لن تفلح محاولاتك لمنعه ..
الحذاء المدبب يشطر بطنك إلى نصفين ..
اصرخ.. لن يفيدك الصمت ..
لن تقوى على النهوض.. الطيور الغريبة على نافذة زنزانتك ..
كم تمنيت الموت لكنه لا يأتي ..

* * *

رائحة الموت تسكن أنفك ..
رائحتك.. كم من السنين قضيتها بين هذه الجدران.. فوق هذه العتبات.. تحت هذه السماء ..
تقدم ..

حجرتك تفتح لك بابها ..
مكتبك الصغير كما هو.. كتبك الكريهة كما هي.. الأغاني..
التشريعات الجانبية الخاصة.. فقه السنة ..الوعي والفن..
غطرسة القوة.. ملحق التشريعات.. بورخيس ..
لم تعلب الأسماء برأسك؟.. العنها الآن.. جف حبرك ..
لن تنجح محاولاتك ..
احترس إنهم يراقبونك.. ينتظرون حتى تغفل عنهم
ويخرجون إليك.. ينهشون رأسك: تشيكوف.. فولتير ..
تولستوي.. يوسف إدريس.. محفوظ.. هوجو.. جيته..
أبسن.. اليوت ..
أيها المجانين ..ماذا تريدون منه الآن؟ ..
اهرب سريعًا.. لن يلحقوا بك.. أسرع ..
الطيور المخيفة تتكاثف فوق رأسك.. النعيق.. البلدة على
عادتها نائمة.. لا يرون ما يحدث وأنت ترى ..
الكرسي الخالي يتحرك دون أن يلمسه أحد.. الجدران تقترب
منك.. الأرض أصبحت مهتزة دائمًا ..
أي رعب أصابك ..
كلهم يهتزون.. يسقطون من خيوطهم.. من ملابسهم..
يفرون.. إلى أين؟ ..
زلزال ..
عراة يهربون.. يهربون وتبقى وحدك ..زنازينهم المغلقة
فتحت أبوابها.. فتحت حجراتها.. يهربون ومازلت تنتظر..
ابتعد ..الجدار يسقط فوق رأسك.. الطيور المخيفة تحلق في
سماء بلدتك ..
سقطت كل الأعمدة ..
يهرولون.. هرول مثلهم.. لا تضعف ..
لن يفيدك البحث في الأنقاض.. حبيبتك البعيدة نائمة وحدها..

القفص الصغير يفتح بابه.. لكن عصفورك الوحيد يأبى أن يخرج ..لن تعود عصفورتك.. حلق.. الطيور الغريبة احتلت سماءك.. صوتك يسحر قلبها.. لا وقت للغناء.. لم عليك دائمًا أن تستمر وهم يهربون؟.. رائحة الموت تزكم أنفك.. أنت ميت فعلاً.. لا تستطيع لها.. صوتها بعيد.. جبال الزمن تفصلها عنك.. وحش المدينة يلتهم كل من يقترب منه ..
سريرك كما هو.. خال ونظيف.. يدعوك فاستجب.. لا تستسلم لها ..صوتها البعيد.. الأنين.. لن يغير الموت من طباعك..
انظر كم أنت متهاوٍ وضعيف.. كم خدعتك الدموع.. صوتك يسحرها.. تقوم إليك.. ترقص لك.. كيف تبدل الموت حياة.. والجدب نماءً.. ترقص لك وحدك.. تغني لها وحدها.. كم أنت جميلة.. المرأة العجوز تئن أمامك ..كنت دائمًا سبب شقائها..
ارقص بين ساقيها المتعبتين.. ارتو من دموعها.. غص بين أحضانها الدافئة.. ابك ..
سيمنعك الآخرون من البكاء.. ستموت صمتًا.. الأرض واسعة جدًا على خطوك المستحيل.. الجياد تدهسك.. يربحون وتخسر وحدك.. وجهك يلفح وجه الشمس ..
المرأة العجوز تحس بك بين أحضانها.. الرجل العجوز عيناه تلمعان.. يجب أن تنسحب الآن.. لا تنظر خلفك.. قبّلهما بحنو وانسحب ..
جميلة وهي ترقص.. أجمل بين أحضانك.. كيف تستطيع أن تمسك بالحياة؟.. كيف تستطيع أن تفلت منك؟ ..
يصفعك المحقق.. أنفك الحجري يتهشم قطعًا صغيرة.. وجهه البشع يبصقك ..
وحدك في الزنزانة الضيقة.. كم تخاف الأماكن الضيقة..
عامل المدرسة القاسي يغلق باب دورة المياة عليك ..
" -انتظر "..

ويسر وأنت تصرخ.. يغلق بابها عليك.. تنهار.. لن يسمعك أحد..تسقط ..
لا تستسلم سريعًا.. انظر.. إنهم ينطلقون وأنت باق مكانك.. لا تتأخر أكثر.. سيجرفك التيار بعيدًا.. انطلق الآن وإلا لن تنطلق.. الجياد تسبقك ..المتراهنون.. لا وقت للزقزقات.. الصهيل.. اجمح.. اصرع الأرض.. الأشواك الكثيفة كم جرحتك.. جاء دورك الآن.. انطلق.. الطيور الغريبة تطاردك ..
أسرع.. احذر انحدار السفح.. تهوي بك الخيل العجوز.. دائمًا ما تسقط ..
قف على قدميك مرة أخرى وانطلق.. اخلع نعليك.. افتح للريح صدرك.. لا تنكمش.. اصرخ.. لا تمت صمتًا.. ستمنع صوتك الجدران.. وحدك في الزنزانة السوداء.. الليل بشع كوجه امرأة شائه ..
وجهها جميل بين كفيك ..
صاحبك يناديك :
" -لن تنجح أبدًا "..
يضحك.. يسخر من قدمك العارية.. ودمك الغزير ..
هي والليل والسماء والمطر.. كل شيء يدعوك للغناء.. لا تكابر.. سترضخ في النهاية.. إنها تساومك.. سترقص لك.. لك وحدك.. كم تحب المساومة ..
الوجه البشع يلكمك.. يجب أن تبوح.. لا تعرف.. لا يتركوك.. تقسم أنك لا تعرف.. لن يصدقك أحد.. يمد المحقق أوراقه إليك :
" -وقع "..
كم تحب المساومة ..
المتراهنون.. تدهسك الجياد في طريقها.. يربحون وأنت

تخسر ..
" -زلزال "..
الكل يهرب منك.. لن يفيد صراخك.. فلا تحاول ..
تسقط.. غيبوبة طويلة ..
يلتفون حولك.. المرأة العجوز تلهث خلفك.. الرجل العجوز لا يقوى على النهوض ..
تخرج الآن من زنزانتك.. نفس الشوارع والبيوت.. نفس الملامح التي اعتدتها.. نفس الاسم الذي كانوا ينادونك به ..
الشبورة كثيفة.. لا أحد يعرفك ..لكنك تسير ..
وتسير..

ضفدع ميت

كتلة كثيفة من الظلام ،لها جسد يشبه أجسادنا،قدمان ويدان ورأس وملامح يطمسها الظلام،تحاول السير تتخبط بما يشبه الأعمدة والأشجار والنخيل ،تتهاوى وتسقط بعرض الطريق لكنها تتماسك،وتنهض تتشبث بخيوط الظلام وخلفها تنبح الكلاب،تعوي،تزمجر ،تنهش،لكنه يتشبث ويسير إلى أول رصيف يلقاه ويلقى بجسده كضفدع ميت.

الكلاب تحاصره أينما ذهب،تلعق جسده،تبحث عن موضع حي ، تظل تبحث وتبحث إلى أن تجد كائنا آخر بنفس الملامح الظلامية يسقط على رصيف آخر.
يستلقى بأمان تام فوق الرصيف.
لم يعتد بكون الرصيف جافا جفوه قبر أو صلبا بقسوة مدية حادة، أو كون اللزوجة العفنة لطفح المجاري كعادتها فوقه.
كان لابد أن يقع وقعة ترتج لها أسقف الأرض الزرقاء المزركشة بعيون صغيرة غافية ، عيون صامته حجرية، عيون ظلامية لا تشع ضوءاًً.
يسقط هكذا دون أن يعير انتباهه للمخلوقات والأجساد التي سبقته- لم يعره كثيرون انتباها، لِم عليه أن ينتبه حتى في سقوطه المريع وإن لم يخل سقوطه من التعجيل بنهاية واحد أو أكثر من ساكني الرصيف.
تلك الكائنات لا تخاف النهايات.. أحيانا تأتي النهايات في أوقات مرغوبة ، أوقات مفعمة بالحنين لها.
أما غالبية ساكني الرصيف فقد شعروا بوخز شديد حين سقوطه.
فروا من تحته في فوضي خرافية- هكذا كانت بين صياح وصراخ واستغاثات.
ومما لا شك فيه أن كثيرا من ساكني الرصيف ظنوا للوهلة الأولي أن كارثة كونية - واحدة من تلك الحوادث التي نسمع عنها كل يوم - قد حدثت بعد أن طمس الجسد الخرافي بأسماله البالية ملامح المكان.
لم تتمالك آلاف الهوام نفسها، ثارت وهاجت وسعت تستكشف ما حدث.

تتسلق جسدك المليء بالشقوق و الفجوات حتى وصلت إلي ملامح وجهك بعد أن غيرتها عوامل التعرية وتعاقب فصول الخريف الخريف عليك.
لم يتعرف عليك أحد، أنت يا من كان يعرفك الجميع، وهو ما زاد من خطورة الحدث وتعقيد الأمر واختلاف البعض وتفشي الفتنة بين الهوام وخروج بعض الآراء التي ترى أن الجسد الغريب واحد من آلهة الإغريق المغضوب عليهم ألقي بينهم وستحل لعنته لا محالة، والبعض انتهي إلي أن مسئولي الحي وراء ما حدث لتفتيت وحدة ساكني الرصيف بعد فشل الحي في القضاء عليهم بكافة الطرق وفكر ساكنوا الرصيف في الإجراءات اللازمة لترتيب إجراءات مبسطة للمرور عبر منافذ الجسد الظلامي إلي شطري الرصيف بعد انقسامه.
كان ثمة انقسام حدث، وساكن الطابق الأول بالعمارة المنكوبة التي جاورت الرصيف يجامع زوجته ـ كما تجامعون زوجاتكم ببلاهةـ بعد محاولات استرضائيه للصغير حتى سكت عن صراخه.
دائما ما يصرخ الصغير.. أنت نفسك تحب أن تصرخ ولكن من يسمعك.. من يسترضيك من أجل مضاجعة تتم في مكان ما ؟!.
كان يضاجعها ببساطة دون أن ينبس بحرف وهي تتأوه كحبيبة وزوجة وعاشقة.
وبسقوطك المريع صرخ الصغير ودفعت الزوجة زوجها من فوقها وانتفضت تصرخ:
- حرامي بالشقة ..
- حرامي بالشقة ..
ألم تسمع الصوت ؟؟

هرول الزوج ينبش عن لص سرقه ـ دائما يوجد من يسرقنا، عن لص اختبأ في مكان ما .
بحث وفتش ولم يجد.
فتح نافذة شرفته وأطل بوجه معروق وبصر زائغ كقط فزع ولكونه واحدا من الذين اعتادوا ألا يروك برغم ضخامة جسدك الهش وبرغم التعديلات التي أحدثها جسدك بشكل الرصيف وبرغم استغاثات الهوام والصياح وأنينك المخطوف وصراخ الصغير المستمر لم يرك.
الصقيع كان شديدا وحرارة جسده تقارب الأربعين، أسرع بإغلاق النافذة والعودة إلي فراش واسع وامرأة تنتفض وصغير يتأوه دون أن يسأل أحد لماذا ؟
ولكون ساكن الطابق الثاني يحس أكثر بالأمان للسياج الحديدي المحيط بمنافذ الشقة- ألا تلحظون أن كثيرا منا يشعر بالأمان رغم السقطات التي تحدث كل يوم على الرصيف - مجرد سياج حديدي أشعره بالأمان!
أنت دائما يمنعك السياج الحديدي عن الأمان ، وأنت دائما تهرب من السياج الحديدي.
ساكن الطابق الثاني استطلع مجرد استطلاع عابر واطمأن للسكون القاتل كحد سكين.. اطمأن للظلام الكثيف الذي يحجب العيون.
كيف اطمأن لسكون بطعم الخوف وعتمة تحجب الكثير.. كيف واتته الجرأة وتنخم وبصق بصقه كبيرة على وجهك المستباح ؟!
بصقه تعني معرفته الكثير رغم الظلامية الشديدة ، بصقه تعني أنه راضي وقانع بسياج حديدي يمنع الهوام من مضايقته في المساء!

أما ساكنة الطابق الثالث تعرف أن كثيرين يسيرون في الظلام مدججين بأسئلة غامضة ، تقف تنفث دخان سيجارتها في الصقيع.
وهج يحترق ، وهج يؤكد وجود بناية كبيرة وطوابق كثيرة تحيطها أسياج حديدية .
وهج يؤكد وجود كائنات تعيش وتتنفس وترتع وتحترق.. وهج يؤكد وجود أرصفة وهوام وضفادع.
ساكنة الطابق الثالث لم تستطع أن تجزم أنها رأت كتلة من الظلام تتهاوي وتسقط على الرصيف، أو سمعت بما يدور من اضطرابات بين ساكني الرصيف، لكنها تقف تنتظر كتلة ظلامية أخرى، لا تختلف ملامحها كثيرا عن كتلة الرصيف لكنها تختلف!
لا تلعقها كلاب الشوارع بأنيابها ..
كتلة تسعد بالكائن الساقط فوق الرصيف ، كتلة تبحث عنه في كل مكان لتصعد فوقها إلي طوابق البنايات.
الظلام خانق والهوام تعاطفت كثيرا مع الجسد الغريب وأنينه المخطوف ورضيت أن يبقَّ معها من ساكني الرصيف.
والكائن الملقي على الرصيف برغم الجروح الدامية والأقدام الكثيرة التي وطأته والصقيع الجارف يغمض عينيه المحمومتين ويحلم .
في كل أوقاتنا نحلم .. الجدران ،الأرض ، الماء النظيف بلا رائحة ، الخبز ، وكائن أيا كان يربت علي كتفه ويضمه إلي صدره.
كان كضفدع ميت ـ لكنه يحلم ..
ينبض رغم كل شيء!

لكـن سـاكني البنايـة المنكوبـة سـكبوا علـى رأسـه قـاذوراتهم ومـيـاههم برائحـة نجاسـتهم.. انـتفض وانـتفض معـه سـاكنوا الرصيف .. ارتجف.. أحس بالحياة تسري في جسده.
لِمَ نحس برغم كل شيء بالحياة ؟!
أرتعب من وحشة الظلام والصقيع والوحدة.. قفز كضفدع ليلي من رصيف إلى آخر، لكنه لم يستطع الموت.

3

كتالوج الديكة والطاووس

سلة من القش والبيض يحوطه الريش الملون وورق الغابة الناعم.
يرقد الطاووس حينا والديكة يتناوشون.
الفرخ يسمع الدوى، ينقر القشرة الناضجة ويشهد نهايات المقاتلة.
الديكة والطواويس على خط الحدود ينتظرون ملامح الفقس الجديد.. والطفلتان تحملان باقتين من الزهر وتتقدمان موكب المصافحة.

استرجاع

(تحاول أنثي الطاووس خدش الفراغ بعينيه.. ورسم ملامحها)

اسمي ماجد فهمي.. الكثيرون لا يعرفون قصته، ولا يعرفون نهي.

قالت له :

خذني إلي المنحنى.

كان يعرف أن الشارع بحركته الشرسة لا يعبأ بخطوات السلحفاة ، وأن آخر عملية زرع أجراها تم فيها استبدال الجزء المتليف بأخر معدني خاضع لكل نظريات الجاذبية والانصهار.

لذلك حين مر أمام حانوت البقالة كان طبيعيا أن يلتصق بجدار صالة العرض الحديدي، وأن تفشل كل محاولاته لمنع البائعة من وضع العلامة التجارية على الرأس الفارغ من الذاكرة.

صالة العرض تقع في الشارع رقم (13)، وربما كان رقم الشقة أو رقم الهاتف أو رقم الطالع ، لكنه الرقم الذي حرصت نصف نساء البلدة على حفظه، وحاول نصف رجال البلدة طمسه من ذاكرة نسائهم ، وتحالفوا على مقاطعة كل حانوت يسمح بعرض السلعة الجديدة.

ناوشني العمدة (هبط إلي المدينة من ألف عام وقرر ألا يعود، وحين شاهد الرجل الخليجي يلف حول رأسه العقال بادر بارتدائه، وحين شاهد الأجنبي يسير في شوارع المدينة بالشورت راقت له الفكرة، لكن هيئة المشورة أشارت عليه أن يطيله قليلا ليصبح إسلاميا).

نظرته عارية الملامح، جست يداه السلعة جيدا، وأقسم للبائعة أنه ليس ياباني الصنعة!

يربـت العمـدة علـى عـري رقبتـي ويتـابع فتحـة فسـتان البائعـة القصـير حـين انحنـت داخـل ثلاجـة المرطبـات ،وانتصبت ملامح وجهي المألوف.
الطـاووس منمـق الـذيل، يتمايـل يمينـا ويسـارا.. والـريش مختلف ألوانه يخطف الأبصار.
الديكـة يجتمعـون فـي حظيـرة الإوز، وهـو مـا كـان يتصوره البعض مستحيلا .
والهدهد متهم بالتلصص على حجرة الملك الخاصة!
يخرج أمير الديكة يؤذن في الحظائر:
(أنثي الطاووس تعاشر ملك الديكة)
يحـوط الديكـة بالطـاووس ، يهجمـون عليـه ويكشـفون موضع عضوه المبتور للمارة المحدقين.
كان ماجد فهمي مريضا بالسكر (الغريب أن كثيرا مـن أهـل البلـدة مريضـون بـنفس العلـة) . والغرغرينـة تستشـري بكفـه اليمنـي ولسـانه، وحـين تعـاوده الأزمـة يكتفي بقليل من الملح المر ويمتنع عن زيارة الطبيب.
لذلك كان غريبا أن يعرف العامة ما أسرت به الملكة لي.
وحـين ظهـر الملـك علـى الشاشـة ممتلئـا.. وخصـيبا.. وأعلن بمناسبة احتفائه بعيد تقليده الأول بعد الألـف ضم كـل جـواري البلـدة لحريمـه الخـاص، قهقـه المتفرجـون، وسقط العرض سقوطا مروعا حين أذابت دموع البطل مساحيق التجميل.
تـاريخ العـرض عشـرة ديسـمبر ألـف وتسـعمائة ، وفـي بعـض الروايـات عشـرة ديسـمبر ألـف وثمانمائـة، وفـي روايات أخري عشرة ديسمبر ألفين.

نهى نسيت أن تراجع صندوق بريدها منذ أكثر من شهر، وحين قرأت رسالتي تشظت عيناها من الدهشة وانزوت داخل معطفها الثقيل.
وبرغم أن درجة الحرارة قاربت على الأربعين ..كانت ترتجف بين الجدران الأربعة.
اخترقت صرة الزحام.
حانوت البقالة شرع يغلق بواباته، اقتربت نهي، هامست البائعة ودست العملة المعدنية في ماكينة الصرف.
حين فارقت الحانوت عادت وأوصت بمزيد من ورق السلفان.
الآن يخلع الطاووس ريشة ويسير عاريا بجوار عربة السلع البديلة وهي تحمل جثماني وسط صياح الديكة.
عينان جاحظتان ترمقان قشور وجهيهما وهى تتساقط مسترخية.
والسماء صافية تكشف ملمس البائعين الناعم..
الطفلتان تتقدمان الموكب، تطبعان القبلة فوق نصف الشفاه.
يتقدم مفاوض الديكة من مفاوض الطاووس.. يتصافحان.. تطلق المدفعية زغاريد الانتصار في السماء المخضبة بدماء العصافير.. يسترخي المفاوضون فوق المقاعد الوثيرة.
مفاوض الديكة يقسم أن البيضة بيضة طاووس.. ويقسم مفاوض الطواويس أن البيضة بيضة ديكة!
ملك الديكة يتسلل عبر أسلاك الحظائر ويواعد أنثى الطاووس في الحظيرة المهجورة.
المنحني ضيق جدا..

انقلبت عشرة سيارات ليلة أمس ، وعربة استشفاء ودراجة بخارية لرجل مرور طارد جروا مجهول الهوية.
كانت نهى ترقد أمام التلفاز عارية تماما.. المذيع التلفزيوني يعلن أن عمر السلعة البديلة يتوقف على كيفية الاستعمال ومداومة الصيانة.
تجمع نهى أشلاء السلعة المفككة وتعيد لفها بورق السلفان.. أثناء اللف كان الثدي النافر يحتك بأشلاء السلعة، تنبض بعض الأجزاء وترتجف.
لم تهتم كثيرا ، وضعتها في خزانة الثلج وطلبت عبر الهاتف خطة التشغيل!.

السؤال عن الوقت

انزوى في الركن الضيق من المكان، تلهث أنفاسه، يحدق في الفراغ المعتم، صدى طرقات الدفوف يطرق أذنيه، يتأرجح كفرخ ذبيح.
الدوائر الكبيرة تخترقها ملايين الدوائر المتناهية الصغر، تتمركز في نقطة واحدة.
(اكتبْ....)
يبحث عن المتكلم في منحنيات العتمة، تلكمه يد.
دائـرة
....
(حين حاولت الكتابة لم أجد ورقة، سألت عن لغة.. للصدى)
تلكمه يد، المنشد يواصل أدعيته على لحن الدفوف، يتساقطون واحدا بعد واحد، يصرخ أحدهم:
- البشرى للمقربين..
تجذبه النقطة، ما زال يحاول المقاومة.
(اكتبْ....)
أشاح بوجهه هربا من اللكمة القادمة، فاصطدم بالجدار.
دائرة ثانية.........
(حين حاولت استرجاع بعض ما عرفت، لم أجد شيئا أعرفه!)
اصطدم بالجدار، النقطة الوحيدة تتلاشى، يحدق في الفراغ، يسقط مغشيا عليه.
(اكتبْ....)

الجدران تزداد اقترابا، تتعارك الحروف على شفتيه محاولة صنع الكلمة المناسبة.

دائرة ثالثة.........

(حين حاولت الكلام.... عجزت)

تتعارك الحروف على شفتيه محاولة صنع الكلمة المناسبة، سقط مغشيا عليه، تنازعه الأيادي.

أتى صوته عاصفا:

(اكتبْ....)

دائرة أخرى ....

(حين قال لي أن الدوائر مهما اتسعت تنتهي بنقطة صغيرة، صدقته، فسرت في طريق الدوائر ألف عام)

أتى صوته عاصفا:

(اكتبْ....)

يحدق في الفراغ المعتم، يجيبه:

(لا أكتب.....)

يبتعد عن طريق اللكمات، يتوه في أزقة العتمة الموحشة، يسقط في الحفر المنتشرة، ينكمش جلده من ملامسة الأشياء الطرية اللزجة.

دائرة رابعة ....

(قال: حاولْ

حاولت..

فشلت..)

ينكمش جلده من ملامسة الأشياء الطرية اللزجة، يغرق في البئر الملتهب، يصرخ.

دائـرة

....

(لغة الدوائر حلزونية الملامح، تخترق الممرات ، تدهس كل القواعد الهندسية، لغة قابلة للطرق.)
يغرق في البئر الملتهب، يصرخ، وضعوا الشمس في عينيه.
(اكتبْ....)
(كتبت....)

دائـرة

....
(الموت.. الموت.. لغة للجهلة بقواعد الهندسة الدائرية..)
(اكتبْ....)
(كتبت....)
انزوى في الركن الضيق من المكان، تلهث أنفاسه، يحدق في الفراغ المعتم.
كنت أحس به قريبا مني.
سألته عن الوقت، ابتسم ولم يحاول الكلام.

رسالة العصفور الفقيد

اعتراف

الآن يا حبيبتي ..

عندما حلق العصفور بين السحاب ، حاولت تقليده .

كانت أجنحتي عارية من الريش ، لم تقو على حملي ، سقطت على الأرض ، تناثرت أشلائي وأصاب العصفور طلق غادر .

صحيفة معارضة :

تواترت الأنباء عن مقتل عصفور صغير .. الحادث الأثيم قيد ضد مجهول .. المصادر تؤكد أن الحادث ورائه يد فاعل .

احتجبت اليوم باقي صحف المعارضة .

صحيفة قومية :

على الناس ألا تحزن لمقتل عصفور ، فكل واحد منا عصفور طليق ، ولنعتبر الحادث حادثا عارضا لا يعكر صفاء سمائنا ..

خاصة والمدعو اعتاد تعدى سمائه الإقليمية والتحليق بعيدا .

إذاعة أجنبية :

المصادر تؤكد ترحيب الناس بمقتل العصفور ، خاصة وقد اعتاد الغناء في كل وقت مما سبب إزعاجا للمدن المجاورة .

....

الناس في المدينة بنفس الملامح يواصلون حياتهم ، يخرجون ويسمعون ويشاهدون ويضحكون ، وأخر النهار يضاجعون زوجاتهم وينامون .

الأطفال بزيهم الجنائزي - في الشوارع - يرددون :

(آه يا عصفورنا الصغير .. كنت تحب الرقص والغناء .. كنت تحب الأرض والسماء والشجر .. لم تكن كما يقال عنك ، عشت يا عصفورنا - بيننا - ميتا والآن هل تعيش ؟؟!)

إعلان :

لجلب مزيد من الرخاء والسلام ريشة واحدة من ريش عصفورنا الفقيد ، والثمن لن يزيد عن دولار

من مذكرات العصفور الشاهد :

السحاب كثيف يحجب كل شيء عني ، حالة الطقس ليست كما وصفتها هيئة الأرصاد الجوية ، دوى الطلقات يخرق فزعي ..

اسمعه يستنجد بي .

أمد له يدي ولا أراه .

الدوامات الهوائية تشدني بعيدا ، الغمام قاتم .. قاتم ..قاتم ....

أخر ما قاله القتيل :

كنت أغرد ..

كانت الطلقة كحبة قمح – ظننت إنها حبة للحياة سكنت قلبي ، لكنني لم أستطع الغناء ..

لم أستطع الغناء ..
لم أستطع الحياة .

....

الآن يا حبيبتي يمكن الاعتراف بأن الرسالة ينقصها الكثير من التفاصيل الهامة .
العصفور الشاهد قالوا عنه إنه غريب لا يخالط العصافير ولا يعرفها .
العصفور الفقيد قالوا عنه إنه لم يستمع لحكمة الحكماء ويكف عن الغناء والتحليق .
وأنا يا حبيبتي يدفعني حبك إلى الغناء .. لكنني عاجز عنـــــــــــــــــــــــــــــــــــــه .
يدفعني حبك إلى التحليق .. لكنني عاجز عنه .
فالناس في المدينة يتحدثون عن عصفور صغير حاول التحليق والغناء ، وعن طلقة وحيدة أسكتت كل العصافير عن الغناء وقتلت العصفور الصغير .

المحتويات

مجرد بيت قديم

(1)

أحمد طوسون
عضو اتحاد كتاب مصر
الكتابة الإبداعية : القصة والرواية وأدب الأطفال .
تاريخ الميلاد : 3 ديسمبر 1968
العمل : محام حر
المؤهل الدراسي : ليسانس الحقوق – جامعة القاهرة 1990
العنوان البريدي : جمهورية مصر العربية
الفيوم – سنورس – شارع 6 أكتوبر
محمول : 0102617533
أيميل : tosonislower@yahoo.com
مدونتي : http://ahmedtoson.blogspot.com

إصدارات :

في مجال القصة القصيرة :

- القصص الفائزة بجائزة جنوب المتوسط دار ميريت الإيطالية 1997
- مجرد بيت قديم على نفقة الكاتب 1999
- شتاء قارس إبداعات – هيئة قصور الثقافة2000
- عندما لا تموء القطط هيئة قصور الثقافة 2003

في مجال الرواية :

* مراسم عزاء العائلة دار شريف للنشر والتوزيع 2006

في مجال أدب الأطفال :

* حكاية خير البلاد قطر الندى – هيئة قصور الثقافة 2003

* حكاية صاحب الغزلان دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة 2006

* دجاجات زينب دار شريف للنشر والتوزيع 2008

* أحلام السيد كتاب دار روائع مجدلاوي ومؤسسة محمد بن راشد

الجوائز :

في مجال الرواية :

- جائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة في الرواية للعام 2001 / 2002 .

في مجال القصة القصيرة :

- جائزة القصة لدول جنوب البحر الأبيض المتوسط التي نظمها إقليم لجوريا الإيطالي عام 1996 / 1997 .

- جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة في القصة القصيرة عام 1997 .
- جائزة الانتفاضة في الإبداع التي نظمتها جريدة الأسبوع القاهرية عام 2000 .
- جائزة أدب الحرب في القصة القصيرة التي نظمتها جريدة أخبار الأدب بالتعاون مع مجلة النصر والشئون المعنوية بالقوات المسلحة عام 1996 .
- جائزة العقاد الأدبية في القصة بمناسبة مئوية العقاد للعام 1997 .
- جائزة دار نعمان للثقافة للعام 2006 .

رقم الإيداع 3341/ 1999
الترقيم الدولي
I.S.B.N 977 291- 145 0